"المرأة"

دراسة في الآباء

والقانون الكنســــــــــي

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢١

www.coptology.org

المرأة، دراسة في الآباء والقانون الكنسي[١]

يقول اللاهوتي الأرثوذكسي فلاديمير لوسكي: "الثالوث هو الأساس الثابت الذي لا يتزعزع لكل فكر وخبرة في الكنيسة الأرثوذكسية، بل هو أساس الحياة الروحية، إن الثالوث هو الذي نسعى إليه عندما نقول إننا نسعى إلى الله وإلى الكمال ... الثالوث هو أساس كل شيء ثابت، هو قلب الحقيقة ... ولا خيار بين الثالوث والجحيم، فإمَّا أن نقبل عقيدة الثالوث كأساس معرفتنا بالله وإمَّا لا شيء". (اللاهوت السري للكنيسة الشرقية).

لقد أردتُ أن أُمهِّد بهذه الكلمات لموضوع المرأة في الآباء والقوانين، ذلك أنه توجد حقيقة فائقة من خلالها يمكن أن نعرف معنى الحرية الحقيقية، وهي عقيدة الثالوث التي تُعلَن بشكل مباشر في الأسرار وفي سر الكنيسة. الثالوث تذوُّقٌ للحياة ثم تعبيرٌ عنه. هو قول الرب نفسه: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب". ولذلك علينا أن نستوعب هذه الحقيقة الهامة. أن نذوق، وبعد ذلك ننظر، لأننا لا نستطيع أن نعبِّر عن فكرةٍ أو مبدأٍ ما، ما لم تكن هذه الفكرة وهذا المبدأ قد وقع ضمن اختبارنا.

لقد قيل الكثير عن المرأة، وما قيل أكثره فكرٌ نظري لا يمتُّ للتاريخ أو للتقليد المسيحي، وبشكلٍ خاص للتقليد الأرثوذكسي بِصلَةٍ. وقد استفاق الغرب على موضوع الحرية الشخصية ومساواة المرأة بالرجل وأطلق عدة شعارات. وتلك الأصوات العالية هي

---

(١) محاضرة ألقيت في الحلقة الدراسية التي أعد لها برنامج المرأة في مجلس كنائس الشرق الأوسط وقسم المرأة في مجلس الكنائس العالمي في الفترة من ١ — ٥ آذار (مارس) ١٩٧٨، القاهرة. نُشِرَت في الكتاب الذي ضم المحاضرات التي أُلقيت في المؤتمر الذي دعا إليه برنامج المرأة في مجلس كنائس الشرق الأوسط بعنوان المرأة في الكنيسة والمجتمع في الشرق الأوسط، مجلس كنائس الشرق الأوسط، القسم الثاني، ص ٩٧ — ١٠٩، الطبعة الأولى ١٩٧٩، بيروت، لبنان.

التي تسود عالم الكتب والجرائد.

في الشرق حيث كل شيء يتغير في بطءٍ شديد وبحرصٍ أشد، لدينا قوانين المجامع المسكونية السبعة التي تقبلها الكنيسة البيزنطية. وهذه القوانين دخلت في مجموعات الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية التي لا تقبل سوى قوانين المجامع المسكونية الثلاثة، أمَّا باقي مجموعات القوانين الشرقية فهي قوانين أساقفة ومجامع مكانية، بعضُها يستحق الدراسة وبعضُها يعبِّر فعلًا عن التقليد الأرثوذكسي. الآن هو ذلك التراث الممتد عبر ١٩٠٠ سنة والذي لا يخلو من المتناقضات، ولكن هذه هي طبيعة الأرثوذكسية، في أنها لا تستند إلى القانون الكنسي بقدر استنادها إلى الإخلاص والأمانة للعقيدة.

والذي نعرفه أن الكلمة اليونانية قانون Καvov تعني أصلًا "الدَّفة" التي يمسك بها الربَّان لكي يقود السفينة. ولذلك، فالقانون الكنسي هو دفة الكنيسة. ومع ذلك، الأصل هو العقيدة وليس القانون. وما القانون إلَّا ترجمةٌ للعقيدة، إذا أحسن فهو صحيحٌ، وإذا أخطأ فيُضاف إلى التراث المتراكم، شهادةً على أننا في تصوُّرِنا للحياة المسيحية لا نحسن النظر أحيانًا. وإذا كانت العقيدة هي الأصل والقانون هو ترجمة أو إدارة للعقيدة، فإن الأصل في العقيدة المسيحية هو "المحبة".

ولذلك، كان علينا أن نتذكَّر الثالوث في البداية، ذلك أن الإعلان المسيحي عن المحبة هو في الثالوث وليس في أي شيءٍ آخر. الله في المسيحية ثلاثةُ أقانيم، والأقنوم هو شخصٌ يتكامل وجوده وكيانه وعمله بوجود شخصٍ آخر. الأقنوم ليس هو الفرد، بل هو الشخص. ولذلك، من الخطأ أن نتصور أن الأقانيم هم ثلاثة أفراد. هذا التصوُّر يتجاهل ما ترسَّخ في كتابات الآباء عن معنى كلمة "أقنوم". الفرد هو صورة العزلة، وهو بالاتجاه نحو هذه العزلة، يتحول من شخص إلى فرد حيث الضياع والموت. أمَّا في الثالوث فالأقنوم يتمايز، ولكنه مع ذلك واحدٌ في الجوهر، وهذه ليست نظرية أو فكرة مجردة، إنها بكل تأكيد ممارسة المحبة كما نراها في صلاة المسيح في إنجيل يوحنا (١٧: ٢١ – ٢٣)، وهي الصلاة التي أساءت الحركة المسكونية ترجمتها إلى الواقع، بل أساءت فهمها أيضًا،

ذلك أن المسيح لم يطلب الوحدة المسيحية بين المؤمنين، بل أعلن عن هذه الوحدة في الآب، وطلب أن يكون الكلُّ واحدًا -كما هو والآب واحدٌ- ومن المستحيل علينا أن نفهم هذه الحقيقة ما لم تتحول حياتنا إلى "صورةٍ أرضية" لحياة الثالوث كما يقول كيرلس السكندري (تفسير يوحنا ١٧: ١٢ مجلد ٣: ٣٥٤). وسوف يظل الثالوثُ هو المثال الفائق الذي يعلو على كل الأذهان، والذي تحاول الارثوذكسية في كل عصر ومكان أن تقلده بالاشتراك فيه.

ولكي نتأكد من أن الثالوثَ ممارسةٌ، أُحب أن أعرض عليكم عباراتٍ من رسائل أغناطيوس الأنطاكي، وهي مِن أقدم الوثائق المسيحية التي تضع الثالوث مثالًا للحياة المسيحية. يقول أغناطيوس الأنطاكي: "إن المحبة قد أبتْ عليَّ أن أصمت فيما لكم، فبادرت أحُضُّكم على السلوك حسب فكر الله، لأن يسوع المسيح حياتنا غير المنفصلة هو فكر الآب، ومثله الأساقفة القائمون في كل مكان، حسب فكر يسوع المسيح". وبعدها بفقرات يقول أغناطيوس: "قد ارتبطتم بأسقفكم برباطٍ روحيٍّ لا جسديٍّ، فكم أنتم مباركين، فأنتم المتَّحدين معه مثل اتحاد الكنيسة بالمسيح، ومثل اتحاد المسيح بالآب، حتى يأتلف الكل في الوحدة" (الرسالة إلى الأفسسيين ٣: ٢ و ٥: ١ — ص ٢٤ — ٢٥ رسائل اغناطيوس الانطاكي. تعريب جورج حبيب بباوي). إن الشهيد يعرف أن كمال وحدة الكنيسة هو بدون شك في تطلُّعِ الكنيسةِ نحو الأصل، أي الآب والابن والروح القدس. لقد أثارت رسائل أغناطيوس العديدُ من الذين قرأوا فيها صورةً لدكتاتورية الأسقف، وطبعًا يشكِّل الاختبار ويكوِّن نظرتنا إلى النصوص، ولكن علينا أن لا ننسى هذا المبدأ الهام، وهو أن المحبة في الثالوث لا رئاسةَ فيها بالشكل السياسي والاجتماعي المعروف في الحياة الإنسانية، وأيضًا لا يوجد خضوع الضعف أو الخضوع المؤسَّس على القهر، هذه صورٌ غريبةٌ للفساد السياسي لا علاقة لها بصورة المحبة كما تظهر في الثالوث. وإذا تذكَّرنا دائمًا أن الآب والابن والروح القدس هم جوهرٌ واحد، أدركنا معنى عبارات قوية وغنية بصورة صافية عن المحبة. يقول أغناطيوس عن المسيح له المجد: "وكما أن الرب لم يعمل عملًا بذاته، ولا على يد رسلِه بدون الآب، لأنه واحدٌ مع

الآب، هكذا أنتم لا تأتون عملًا بمعزلٍ عن الأسقف والقساوسة. لا تحاولوا أن تدعِّموا بالبرهان ما تنفردون بعمله، بل اعملوا عملكم حسب الشركة، وهي: صلاةٌ واحدة، تضرعٌ واحد، فكرٌ واحد، رجاءٌ واحد في المحبة وبفرحٍ لا عيبَ فيه، هذا هو يسوع المسيح الذي لا يَفْضُله شيءٌ — اجتمعوا من هيكلٍ واحد ومذبحٍ واحد في يسوع المسيح الوحيد، الذي خرج من آبٍ واحد، وكان معه واحدًا وإليه عاد وهو واحدٌ" (الرسالة المغنيسيين ٧: ١-٢ ص ٣٥). إن الفكر البشري غير المجرد من الكبرياء لا يمكنه أن يرى في هذه الكلمات سوى التسلُّط والقهر والسلطة والرئاسة وما إليه، وهذه هي المأساة. ذلك أن عطاء المحبة لا يتم، حتى بالنسبة لله إلَّا في عالمٍ تسوده الكراهية ويتسلَّط عليه الموت، والذين استنارت عيونهم، هؤلاء لا يفقدون صفاء المحبة. لا تسلُّط للآب على الابن ولذلك لا تسلُّط للأسقف على الكنيسة، والأريوسية وحدها هي التي لا تقبل وحدة جوهر الآب والابن، لأن تطلُّع الأريوسية ليس إلى المحبة بل التسلط. ومأساة الكنيسة ستظل دائمًا في عدم وضوح صورة محبة الثالوث واختلاط صفاء محبة الثالوث بما يترسب في عقل الانسان من أشواقٍ للتسلط.

إذا صدقتْ هذه الرؤيا، أمكننا بنفس الروح، أن نفهم الكلام عن المرأة والرجل، لا سيما في نصوص العهد الجديد حيث تظهر صورة المسيح والكنيسة كمثال لعلاقة الرجل والمرأة في الزيجة. وهنا علينا أن نصحح الفكر البشري، ذلك أن عبارات "رأس المرأة" (أفسس ٥: ٢٢-٢٦)، وغيرها ليست بالمرة دعوةٌ إلى التسلط أو الرئاسة لأن كل هذه الصور غريبةٌ تمامًا عن دعوة المحبة كما يعلنها الإنجيل، الخبر السار. ففي هذا الإنجيل صارت السيادةُ للخدمةِ والبذل والقوة هي العطاء. أليست هذه هي صورة الصليب والقيامة وانسكاب الروح القدس؟ ولذلك إذا قيل إن الرجل هو رأس المرأة، فهو مثل المسيح رأس الكنيسة، قدَّم ذاته لأجل الكنيسة وأعطاها حياته. قدَّم نفسه، وبذلك صار رأسًا (أفسس ٥: ٢٥) بمعنى الأصل أو البداية كما هو واضح من استعمال كلمة رأس في الكلام عن الكنيسة، لا سيما في ضوء النصوص الخاصة بقصة الخلق (تكوين ١: ٢٦ — ٢: ٢٣ — أفسس ٥: ٣٩).

وليس لدينا في كتابات الآباء مَن فسَّر طاعة المرأة كطاعة العبد للسيد، أو كطاعة الأقل للأعظم، ولو وُجِدَت هذه التفاسير فهي بدون أدنى تردد لا تعبِّر عن الصورة الأصلية، وهي المسيح والكنيسة. إن الكنيسةَ تطيع الربَّ وتدعوه "سيدي"، ليس لأن الكنيسة في أغلال العبودية، بل لأنها قد ذاقت المحبة الإلهية. وعلينا أن لا ننسى تلك الأنشودة القوية عند بولس الرسول: "في المسيح يسوع لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى". وبولس يؤكد أيضًا: "لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ" (غلاطية ٣: ٢٧-٢٨) ففي العهد الجديد لا توجد دعوة سيادة، بل دعوة المحبة الإلهية. ولذلك، علينا أن نراجع دائمًا ما لدينا من نصوص عن علاقة المرأة بالرجل على الصورة أو المقياس الأصلي، وهو المسيح والكنيسة.

من الواضح طبعًا أن المرأة لا تُعلِّم في الكنيسة، وهذه النظرة ليست تعليمًا ضد المرأة. لأن التعليم في الأصل، ليس حقًا للرجل دون المرأة، وليس حقًا لكل رجل في الكنيسة، التعليمُ هو موهبةٌ خاصةٌ يعطيها الروح القدس لمن يدعوه ليكون مُعلِّمًا (١كورنثوس ١٢: ٢٨-٣١). وعلينا أن نربط بين موهبة التعليم في الكنيسة، والتعليم بكل نظرياته التربوية التي انتشرت في الفكر البشري في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. ذلك أننا لا نقول إن المرأةَ لا تعلِّم بشكلٍ مطلق. لأننا سنرى في القوانين أن حق التعليم مكفولٌ لها، ولكننا نقول: لا يُعلِّم إلَّا المعلِّم الكنسي الذي يدعوه الرب، وهذا يجعل الموضوع مختلفًا تمامًا. لأن الموهبةَ ليست وظيفةً يؤديها صاحبُها، بل نعمةٌ إلهيةٌ تتجلى في حياة الكنيسة. وهذا يُخرِج موضوع التعليم تمامًا من الصراع القائم حول موضوع المساواة. ونفس الشيء ينطبق على الكهنوت. إذا راجعنا رسائل أغناطيوس الأنطاكي وجدنا أن الأسقف هو مثل الله الآب، يحمل للكنيسة هبةَ الأبوة، ولذلك فمنذ أقدم العصور يُدعى الأسقف بالأب (استشهاد بوليكاربوس "هذا أب المسيحيين") والأبوة الروحية لا معنى لها بالنسبة للمرأة. ولذلك السبب وحده حُصِرَ الكهنوت في الذين يدعوهم الرب لكي يكونوا آباء. هذه الدعوة تتفق مع المظهر أو الشكل أو الهيئة، أي الجسد. إننا نخطئ إذا ظننا أن الرجولةَ فرقٌ بين الرجل والمرأة، أو أن الجسد هو مجرد وظيفة بيولوجية، لأن الجسد في الواقع هو الوجود الظاهر للإنسان، وهو الشكل الذي

يحمل في داخله كل هبات الله، ولهذا السبب فالكاهن هو الأب الذي يحمل لنا العلامة الظاهرة أو انعكاس أبوة الله الآب لنا (راجع رسائل أغناطيوس الأنطاكي).

ليس الكهنوت حقًا أو امتيازًا بل دعوةٌ إلهيةٌ لا توجَّه إلى كل الرجال، بل إلى رجلٍ معيَّنٍ من الله، يدعوه الله بموهبة الأبوة والتعليم، تميّزُه الكنيسةُ وتعترف به وتختاره لدرجة الكهنوت. وهذا يجعلنا نفرق بين الأسقف والقس الذي يدعوه الله، وبين الوضع المعروف في الغرب حيث أصبحت شهادة الدراسة هي المؤهِّل الذي يجب أن يتوفر في خادم المسيح. وعندما تصبح قاعدةُ الاختيار هي الشهادة اللاهوتية، فإنه لا مجال لحرمان المرأة من الخدمة. فهي خدمةٌ يستعد لها الإنسان، ويؤدي فيها الامتحانات التي تشهد بالكفاءة والمقدرة، وطبعًا ليس هذا هو الكهنوت كما يراه الشرق. الموهبةُ أساسيةٌ، بل هي القاعدة التي يقوم عليها اختيار الكاهن، وكذلك أيضًا الأبوة، وهي الصفة الأساسية في الكاهن. ولهذا وحده تمنع المصادر القديمة كلها، أي كتابات الآباء والقوانين أن تُرسَم المرأةُ لدرجة الأسقف أو القس، وطبعًا سوف ندرس موضوع الشماسة في حينه.

الرأس المغطى عند الرسول بولس:

المرأة التي تصلي ورأسها غير مغطى تشين رأسها (١كورنثوس ١١: ٥). لم أجد في كتابات الآباء ما هو أفضل من تفسير العلامة القبطي ديديموس الضرير. يقول ديديموس في حوار بين مونتاني[١] وأرثوذكسي، يُجيب فيه الأرثوذكسي على أسئلة المونتاني الذي يقول إن الكتاب زاخرٌ بأمثلةٍ هامةٍ لنساءٍ علَّمن الرجال مثل دبورة النبية. وهنا يقول ديديموس: "إن الذي نرفضه هو أن يتكلمن في الكنيسة بمعنى أن يضعن الكُتب والمؤلَّفات التي تعالج موضوعات الإيمان وعليها أسماؤهن، وهذا هو معنى أن يكون رأسها مغطى .. وحتى العذراء مريم كانت تستر رأسها، وكان ستر رأسها هو الإنجيل الذي كتبه

(١) كما نعرف، كانت البدعة المونتانية قد أعطت كل وظائف الكهنوت للمرأة.

الرسل، فهي لم تكتب إنجيلًا بل اختفت خلف الرسل"[١].

ويلاحِظ ديديموس في نفس النص أن المرأة لا يمكنها أن تغطي رأسها بشكلٍ دائم، لأن هذا يتعارض مع الصلاة الدائمة. لأن ديديموس يعرف تمامًا أن الموضوع ليس هو الرأس Head بل الرأس المغطى هنا هو الأسقف Chief.

وإذا درسنا ذهبي الفم، فعند ذهبي الفم لا سيما العظة ٣٠ على رسالة رومية يقول ذهبي الفم إن المرأة ليست ممنوعةً من التعليم لأن بريسكلا هي التي علَّمت أبولس الايمان، وطبعًا هذا هو صوت التقليد. ثم يعود الذهبي الفم في العظة ٤٠: ١ على نفس الرسالة ويقول: "المرأةُ لها حق التعليم تمامًا مثل الرجل". ويقول في العظة ١٠ على تيموثاوس الثانية: "سلموا على بريسكلا واكويلا" إن الرسول ذَكَرَ المرأةَ قبل زوجها لأنها هي التي علَّمت أبولس. بل في العظة ٣ التي تُعرَف بالعنوان المشهور "(سلِّموا على بريسكلا واكويلا[٢]) يقول ذهبي الفم: ليست بريسكلا وحدها، بل نساءٌ أخريات مثل برسيس، مريم، وترفين (رومية ١٦: ٦ و١٢)، هؤلاء علَّمن رجالًا" ثم يعود ويسأل ذهبي الفم: لماذا لا تُعلِّم المرأة؟ ليس إذنٌ للمرأة أن تُعلِّم إذا كان الزوج مؤمنًا أما إذا كان غير مؤمنٍ فلزوجته أن تُعلِّم (١كورنثوس ٧: ١٣ – ١٦) كما علَّمت بريسكلا أبولس"[٣].

منذ زمن ترتليان والاتفاق العام هو أن المرأة لا تُعمِّد[٤] ولكنها تتنبأ كما ذكر الرسول بولس[٥]. وفي الواقع لولا الغنوسية، والبدعة المونتانية لتطورت خدمة المرأة في

(1) Retutation d'un montaniste, Ficker 456, 24-458, 12.

(٢) مجلد ٥١ من مجموعة الآباء اليونانيين.

(٣) مجلد ٥١: ١٩١-١٩٢.

(٤) مقالة على المعمودية ١٧: ٤.

(٥) ترتليان ضد مرقيان ٥: ٨ و١١.

الكنيسة بشكل طبيعي، لكن حرص الكنيسة على أن تميِّز شعبها من الممارسات الغربية عند الشيع جعل تطور النظرة إلى خدمة المرأة يسير ببطءٍ شديد.

ورغم أسلوب العلامة ترتليان القاسي اللهجة، إلَّا أنه يخبرنا عن تمتع النساء بالمواهب الروحية ويسجِّل لنا بكل وضوح موهبةَ أختٍ يقول عنها: "توجد بيننا في هذه الأيام أختٌ أخذت موهبة الإعلانات. وتحصل على الإعلانات من اجتماعات الكنيسة في القداسات وعندما تمر بغيبوبة (حرفيًا Ecstasy) وتحت تأثير الروح القدس تتحدث مع الملائكة وأحيانًا مع الرب نفسه وتسمع وترى أسرارًا بل هي تطلَّعُ على أسرار القلوب كما لو كانت تقرأها مثل كتابٍ مفتوح وتصف الدواء لمن يحتاجون إلى دواء.."[١].

ولكننا لا نعتد في كل المصادر القديمة عند الآباء إلَّا بما يُعرف باسم "الأرامل". وقد أزعجت هذه الكلمة الذين درسوا الآباء، لا سيما في القرنين الثاني والثالث. وليس لدينا وضوح في المصادر؛ هل الأرامل هن الشماسات، وهو الاسم الغالب في القرن الرابع، حيث اختفت كلمة الأرامل تقريبًا لتحل محلها كلمة الشماسة؟ وهل الأرامل هن فعلًا اللواتي ترملن، أم نساءٌ وصلن إلى هدوء واتزان الشيخوخة؟ وما هو موقف العذراء، هل هؤلاء يدعون أرامل أيضًا؟ كل هذه الأسئلة لا نملك في الوقت الحاضر أن نجيب عليها بكل دقة، ولكن نكتفي بأن نسجِّل الأرملة — العذراء — الشماسة ونكتب ولو كلمة موجزة عن كل واحدة.

الأرملة:

الإشارة الأولى إلى الأرامل في (١تيموثاوس ٥: ٣ – ١٦). ويليها مباشرةً رسالة بوليكارب الشهيد إلى فيلبي (٣: ٤). وربما يشير أغناطيوس الأنطاكي إلى الأرامل في (رسالة إلى سميرنا ١٣: ١)، ولكن النص غير واضح. وكل ما نعرفه مِن هذه الإشارات

---

(١) مقالة على النفس ٩: ٤.

هو خدمة الصلاة. ومن الواضح أن لغة بوليكارب لا تختلف لفظًا ومعنى عن القانون ٢١ من الكتاب الأول لقوانين الرسل (النص القبطي)، حيث يذكر القانون بكل وضوح: "فلتُقِم أرامل اثنتين تتفرغان معًا للصلاة من أجل الذين في التجارب". وهو ما يدعوه بوليكارب خدمة المذبح، أي ذبيحة الصلاة من أجل الآخرين. لا نعرف أكثر من ذلك والمصادر بعد القرن الثاني تضع الأرامل في صفوف الإكليروس، حيث يقول أكليمنضس السكندري: "يوجد عددٌ من القوانين التي تخص المختارين للخدمة مدونةٌ في الكتب المقدسة، وهؤلاء هم القساوسة أو الأساقفة أو الشمامسة أو الأرامل" (المربي ٣: ١٢ و٩٧ و١). ومثله يفعل العلامة أوريجينوس عندما يذكر الأرامل في رتبة الإكليروس (تفسير يوحنا ٣٢: ١٢ و٧). ومن أوريجينوس نفهم أيضًا أن الزواج الثاني غير جائز بالنسبة للأرملة، ولكن من سياق النص يؤكد أوريجينوس أن الأرامل مِن رتبة الإكليروس: "ليس الزنى فقط، بل أيضًا الزواج الثاني لا يليق بالرُّتب الكنسية، فلا الأسقف ولا القس ولا الشماس ولا الأرملة يمكن لهم أن يتزوجوا مرةً ثانية". (عظة على انجيل لوقا: ١٧). ويؤكد العلامة أوريجينوس أن الأرملة تُعلِّم، وكما نعرف منهجه الواضح في تأويل النصوص تأويلًا رمزيًا يقول: "إذا كنت تريد أن تعرف كيف تغسل المرأة أرجل القديسين، استمع إلى بولس الرسول الذي يقول في موضعٍ معروف عن الأرامل إنهن "يعلِّمن الحدثات الصلاح والتعفف". وهكذا، فإن غسل قذارة أرجل البنات الحدثات هو تعليم هؤلاء الإيمان، ولذلك صار لهؤلاء الأرامل كرامةً عظيمةً في الكنيسة لأنهن يُقدِّمن التعليم الروحي، ولكن أرجل القديسين ليس الرجال، بل النساء، لأن الرسول يقول: "لست أسمح للمرأة بأن تعلِّم"، وهو لا يعني هذا بشكلٍ مطلق، بل أن لا يُعلِّمن الرجال وإنما يُعلِّمن النساء، لا سيما البنات الحدثات كيف يعشن حياة العفة، وكيف يحببن أزواجهن وأولادهن" (عظة ٦: ٣ على إشعياء).

ويؤكد العلامة أوريجينوس بعد ذلك أن المرأة يمكن أن تعلِّم امرأةً، بل أن تتنبأ مثل بنات فيلبس النبيات، ولكن هؤلاء لا يتكلمن في الكنيسة تمامًا مثل دبورة النبية، ومثل مريم اخت موسى التي قادت الشعب في التسبيح (خروج ١٥: ٢٠). ويمضي أوريجينوس

يستعرض كل أسماء النساء اللواتي خدمن؛ خلدة النبية – حنة النبية، ولكنه يتمسك في النهاية بنص الرسول بولس: "لست أسمح للمرأة أن تعلِّم في الكنيسة" (١كورنثوس ١٤: ٣٥) (شذرة من تفسير كورنثوس الأولى شذرة رقم ٧٤). ويمكننا أن نقول إن نفس ما ذكره أوريجينوس هو ما نجده عند ترتليان.

وهكذا اذا جئنا إلى القرن الثالث، فإن ذلك الكتاب الغامض: "الدسقولية السريانية"، وهو حسب شهادة علماء الآباء أقدم دسقولية في أيدينا – النص السرياني ترجم إلى اللاتينية مع دراسة جيدة للعالم الإنجليزي R. H. Connolly

Diadascalia Apostolorum, OX. 1929.

وتقول الدسقولية: "على الأرامل أن يخضعن للأسقف وأيضًا للشماسة وأن لا يسرعن باتخاذ قرار منفرد بدون الرجوع إلى هؤلاء "الأسقف والشماسة" .. وتُمنَع الأرامل من وضع اليد على أي إنسان أو حتى الصلاة من أجل أي إنسان بدون إذن الأسقف (٣: ٨ و١-٥). وتحذِّر الدسقولية من قبول الهدايا أو الصدقات الخاصة، ثم تضيف إلى ذلك بشكل واضح، الأمر بعدم التعميد (٣: ٩ و١-٣).

الشماسة:

الإشارات إلى الشماسة في النصوص القديمة واضحة جدًا من كتابات آباء الإسكندرية أكليمنضس وأوريجينوس ولا نسمع عن المرأة الشماسة قبل هؤلاء أو من أي مصادر تسبق آباء الإسكندرية. وبكل أسف .. فالإشارات إلى النساء الشماسات قليلة جدًا ولا يعطي لنا أكليمنضس السكندري سوى إشارة تؤكد أنهن من الكنيسة ويخصهن بالإشارة διαχονοων γυναιλων إلى الشماسات النساء (المتنوعات ٣: ٦ و٥٣). وفي الحقيقة إن علماء الآباء يعتقدون ان أكليمنضس مثل أوريجينوس يشرح نص (١تيموثاوس ٣: ١١)، وأن شخصية فيبي الشماسة المشهورة هي المقصودة بالشرح وليس رتبة كائنة في الواقع (راجع أوريجينوس تفسير رسالة رومية ١٠: ١٧ مجموعة الآباء

اليونانيين ١٤: ١٢٧٨) وعلينا ان نلاحظ ان نص تيموثاوس ٥: ٩-١١ مع تيموثاوس ٣: ١١) يضع النساء مع الشماسة وأن هؤلاء النساء هن الأرامل وفيما بعد الشماسات، وهذا ما تؤكده القراءة الدقيقة لكتاب الدسقولية السريانية. وقد أدَّى ذِكر الأرامل والشماسات على حدة إلى افتراض وجود رتبتين مختلفتين، ويظل تفسير العلاقة بين الأرامل والشماسات مجرد افتراض أو افتراضات لا يمكن أن يؤكدها النص.

تقول الدسقولية: "علينا أن نكرم الشماسات لأنهن مثال الروح القدس" (٢: ٢٦ و٦)، واللغة تعكس عبارات القديس أغناطيوس، الأسقف هو رمز أو مثال الله الآب القدوس مثل المسيح، والشماسة مثال للروح القدس. طبعًا الشماسة لا تعلن عن ذاتها إنما تستتر وراء القس أو الأسقف تمامًا، ومثل الروح القدس الذي لا يعلن عن نفسه وإنما يعلن الآب والابن.

وتقول الدسقولية بعد ذلك إن الأسقف يختار الشماسة ثم الشماسات؛ "امرأة لخدمة النساء، لأنه توجد بيوت لا يمكنك أن ترسل إليها شماسًا بسبب الوثنيين وإنما ترسل إليها الشماسة". ثم تضيف الدسقولية موضحة لأول مرة في تاريخ الكنيسة عمل المرأة الشماسة: "والمرأة الشماسة نافعة لأنه عندما تنزل امرأة إلى مياه المعمودية وهؤلاء اللواتي ينزلن إلى المياه يُدهَن بدُهن المسحة بواسطة الشماسات .. لأنه لا يليق أن يتطلع الرجال إلى أجسام النساء .. وعند لحظة وضع اليد عليك يا أسقف أن تدهن الرأس فقط .. وعلى المرأة الشماسة أن تدهِن بعد ذلك .. ولكن على القس أن يقول صيغة التعميد أي الأسماء الإلهية .. وعندما تصعد المرأة التي تعتمد من الماء، فعلى المرأة الشماسة أن تتولى تعليمها". وتقدم الدسقولية حجتها الدامغة على خدمة النساء الشماسات بأن الرب نفسه خدمته النساء مثل مريم المجدلية ومريم أم يوسي، ثم تقول: "وهكذا تحتاج أنت يا أسقف إلى خدمة النساء الشماسات .. حيث يذهبن إلى بيوت الوثنيين حيث توجد بعض النساء المؤمنات ولزيارة النساء المرضى لخدمتهن (الدسقولية ٣: ١٢ و١-١٣). ولعل هذا هو أوضح النصوص حيث يحدد خدمة المرأة الشماسة كمساعد للأسقف في خدمة النساء لا سيما في المعمودية:

١– الدهن قبل التعميد.

٢– الدهن بعد التعميد بالميرون.

٣– التعليم.

رسامة المرأة الشماسة حتى القرن الرابع:

المصادر القديمة -لا سيما القانون الكنسي- لا تعطي أي إشارة إلى رسامة الشماسة. بل أن القانون ٩ من قوانين أبوليدس المعروفة لنا الآن باسم التقليد الرسولي للقديس هيبوليتوس ترفض وضع اليد على المرأة الشماسة للرسامة. ويؤكد ذلك قانون ١٩ من قوانين المجمع المسكوني الأولى ٣٢٥ حيث أشار بكل وضوح أنه لا توجد رسامة للنساء الشماسات اللواتي خدمن مع بولس الساموساطي ويقول القانون: "هؤلاء يقبلن في خدمة الكنيسة بدون أي رسامة لأنهن أصلًا لم يُرسَمن".

ومما لا شك فيه أن المصادر القانونية حتى نهاية القرن الرابع لا تقدم أي دليل على رسامة المرأة شماسةً كانت أم أرملة – طبعًا الإشارات إلى العذارى نادرة وعلى ما يبدو أنهن كن متفرغات للصلاة.

القرن الخامس:

إذا شئنا أن نتمسك بالدقة التاريخية، فمن المؤكد أن أول إشارة إلى رسامة المرأة هي من القانون ١٥ من قوانين مجمع خلقيدونية حيث يقول القانون بكل صراحة: "لا تسام امرأة شماسة قبل سن الأربعين من عمرها وذلك بفحص بليغ". وأهمية هذا القانون هو أنه أول إشارة تاريخية واضحة إلى رسامة المرأة لأن الكلمة اليونانية χειροτονια الشرطونية لا تُستخدَم إلا في وضع اليد للرسامة والقانون يقول صراحةً: "لا تسام امرأة χειροτονεισθαι قبل سن الأربعين".

فـاذا تـذكرنا أن هـذا المجمـع عُقـد في سـنة ٤٥١ أمكننـا أن نفهـم الإشـارات المتضاربة في المصادر القانونية المعاصرة. إذا كانت مصادر القرن الرابع لا تذكر شيئًا عن رسامة الشماسة فإن مصادر القرن الخامس لا تحدد فقط سن الرسامة، بل تقدِّم صلاة الرسامة في شكل قانوني في الكتاب الغامض الذي لا زال لغز القانون الكنسي والذي يُعرف باسم الأحكام الرسولية حيث يقول الكتاب الثامن "بخصوص الشماسة: أنا بارتلماوس أضع هذا القانون: أيها الأسقف ضع يدك عليها بحضور القساوسة والشماسات وصلِّ هكذا: أيها الاله الأبدي الآب، أبا ربنا يسوع المسيح خالق الرجل والمرأة الذي ملأ بالروح القدس مريم ودبورة وحنة وخلدة، والذي لم يرذل أن يُولَد ابنه الوحيد من امرأة، والذي أمر أن تُقام النساء لحفظ الأبواب في خيمة الشهادة: انظر الآن إلى عبدتك التي تسام لدرجة الشماسية وامنحها الروح القدس لكي يطهرها من كل دنس الجسد والروح، لكي تكمِّل العمل الذي أُعطيَ لها لمجدك ولتسبيح مسيحك .." (كتاب ٨: ف ١٩).

ولا يمكن الإجابة على أهم الأسئلة التي تدور في ذهن الباحث، هل كان مجمع خلقيدونية هو الذي خلق رسامة الشماسة، أم أنه كان يؤكد ممارسةً قديمة؟ وما هو عمر هذه الممارسة؟ وهل هي ممارسة في الكنيسة كلها أم في بعض الأقاليم؟ كلُّ هذه الأسئلة ستظل بلا إجابات واضحة في الوقت الحاضر، لكن المؤكد هو أن الكلام القديم في الدسقولية السريانية والإشارات القديمة إلى الشماسة لا يمكن أن تمر بدون تدخل الكنيسة لتضع هذه الرتبة في موضعها الصحيح.

وعلى ما يبدو تطور الموضوع من رسامة المرأة شماسة إلى رسامتها لدرجة القسوسية في وهذا مجرد استنتاج لأن القانون من قوانين مجمع اللاذقية يقول:

περι του μη δειν τας λεγομενας πρεσουτιδας ητοι προχαθημενας εν Εχχλησια Κχθιστασθαι

في أنه لا يجوز أن يكون في الكنيسة النساء اللواتي يُسمَّين شيخات متقدمات. والجدل حول الكلمة πθεσουτιδας هو جدل عقيم، ذلك أنه من المؤكد أن كلمة شيخ قد ثبُت معناها وأنها أصبحت تعني بشكلٍ واضحٍ لا لبس فيه "قس". لكننا لا نعلم شيئًا عن هؤلاء "الشيخات" لأننا لا نجد هذه التسمية إلا في هذا القانون.

ومن المصادر التي اكتسبت شهرةً في الشرق لا سيما في الكنيسة السريانية، ذلك الكتاب الغامض المعروف باسم "كتاب عهد ربنا" وفي الترجمات العربية باسم "العهد السيدي"، وقد ذاع هذا الكتاب بشكلٍ خاص في القرن الخامس، واكتسب شهرةً في السادس، ثم ظهر بعد ذلك في المدونات العربية عند الأقباط ابتداءً من القرن العاشر. في "العهد السيدي" تُذكر الأرملة والشماسة معًا، ويشرح الكتاب سبب وضع ستارٍ على باب الهيكل، ثم يذكر الرُّتَب الكنيسية: "وبما أن الشعب القديم قد ضل، فليكن ستار باب الهيكل مسدلًا حين يقرب، ومن داخله فليقرَّب مع الكهنة والشماسة الأرامل والشماسات والقارئين" (كتاب ١: فصل ٢٣). وعلى ما يبدو أنه لا يوجد مناص من أن نحصر كلمة أرملة في معناها الشائع اليوم طالما أنها تجلس مع الشماسات. ولكن الأهم من كل هذا هو دخول هؤلاء النساء إلى الهيكل في الداخل للتناول مع الشماسة. ولا يوجد أدنى شك في أن هذه ممارسة فعلية، لأن القانون ٤٥ من قوانين مجمع اللاذقية يقول: "لا تدخل امرأة إلى المذبح"، وهو بلا شك رد فعل للممارسة التي شجَّعها كتاب العهد السيدي، لأن ترتيب جلوس النساء كما يقول هذا الكتاب هو "عند باب البيت السيدي" وهي إشارة واضحة إلى الهيكل لأن الكلمة اليونانية προσκηνιον لا تحتمل إلَّا هذا المعنى.

وقد حافظ كتاب العهد السيدي على حقوق المرأة الشماسة كما جاءت في كتاب الأحكام الرسولية وأكَّد قيامها بمساعدة القس في تعميد النساء (كتاب ٣: فصل ١١ ص ١٠١).

ما بعد القرن الخامس:

في المصادر السريانية والبيزنطية تقدَّمت خدمة المرأة كثيرًا وأصبحت تُقدِّم المرأة الشماسة الكأسَ في القداس، لا سيما في الأديرة، وكانت تقرأ الإنجيل وتلبس ملابس الشماس(١).

بل تقدمت الكنيسة الأشورية (النسطورية) وأعطت للمرأة الشماسة أن تبارك النساء وأن تعظ حيث يجتمع النساء.

الرجوع إلى الخلف بعد القرن الخامس:

كانت الإمبراطورية البيزنطية تبحث عن مصدر إلهي للتشريع، وكان العهد القديم هو أفضل ما عثر عليه المشرعون البيزنطيون. ولكن العهد القديم، لا سيما شريعة التطهير جاءت غريبة تمامًا عن روح المسيحية، ولذلك كان من الحتمي أن تدخل القواعد الخاصة بالطهارة الجسدية في عصور الضعف الروحي. وفي عصور الضعف الروحي يسود القانون أكثر من العقيدة.

من المؤكد أن أقدم التشريعات القانونية وهي "الديداكي"، ثم قوانين الرسل، ثم قوانين أبوليدس لا تشير إلى موضوع الطهارة الجسدية مطلقًا، بل هو غير معروف تمامًا في هذه الفترة. ولا يمكن لإنسانٍ أن يزعُم بأن الكنيسة كانت تطبِّق القواعد الخاصة بالمرأة الطامث .. الخ في تلك الفترة، ذلك أن حكم مجمع الرسل الذي أشار إليه سفر الأعمال صريحٌ وواضحٌ، والموضوع هو موقف الكنيسة من شريعة العهد القديم، لا سيما الطعام

---

(١) يمكن مراجعة المقال الجيد.

J. Danielou, Le Ministere des Femmes dans L'Eglise Ancienne. Le Maison – Dieu, 1960-P70-96.

والختان، وهو ما أشار إليه سفر الأعمال "أن تختتنوا وتحفظوا الناموس" (أع ١٥: ٢٤). وحفظ الناموس كما سنرى بعد ذلك، هو أمرٌ لا تلتزم به الأمم "قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلًا أكثر غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا .." (أع ١٥: ٢٩)، وهو ما يؤكده بعد ذلك الرسول بولس بكل وضوح: "لا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هي ظل الأمور العتيدة". وبعدها يؤكد الرسول بولس أن الأفعال الثلاثة الخاصة بشريعة التطهير ككل؛ لا تمس – ولا تذق – ولا تستعمل التي هي جميعها للفناء، بل هي لها حكاية وقصد (حكمة) في عبادة نافلة" (كولوسي ٢: ١٦–٢٣). ولا يمكن أن نتصور عودة شريعة العهد القديم إلَّا في فترات الضعف حينما تنسى الكنيسة أن طهارتها ليست في الاغتسال بالماء، بل في عمل وقوة الروح القدس. ولذلك، حتى القرن الخامس ومع التقدم في إعطاء ممارسات ليتورجية كانت الكنيسة تواجه النكوص والارتداد إلى الأركان الفقيرة التي لا قيمة لها مطلقًا بعد التجسد. ويكفي أن نقارن بين نصين؛ نص صلاة تكريس الأرملة من كتاب العهد السيدي — ونص القانون العاشر من قوانين البابا كيرلس الثالث ابن لقلق.

قانون البابا كيرلس الثالث:

"تُمنَع المرأة الحائض من دخول الكنيسة".

صلاة تكريس الأرملة:

"لتكن رسامة الأرامل هكذا: بينما تصلي عند مدخل المذبح خافضةً الطرف يقول الأسقف بهدوء .. "اللهم القدوس العلي الناظر إلى المتواضعات، يا من اختار الضعفاء والأقوياء وكرَّم اللواتي خلقهن حقيرات: ارسل يا رب الروح القدس على أمتك هذه وقوِّها بحقك، فإذا عملت بوصيتك وخدمت في بيت مقدسك كانت لك إناءً مكرمًا". (كتاب ١: فصل ٤٢).

وإذا تذكَّرنا أن الفارق الزمني هو ٨٠٠ سنة، أدركنا الفرق اللاهوتي أيضًا، فقد ضاقت تلك النظرة الروحية الأولى تحت تأثير العودة إلى تشريعات العهد القديم، ثم ظهور الإسلام وهي ديانة لا تختلف عن اليهودية في نظرتها إلى المرأة وإلى نجاسة الجسد وما يصدر عنه من إفرازات.

وكان من الحتمي أن تعمل كل الظروف المحيطة بالكنيسة على عودة التطهيرات اليهودية القديمة، ولذلك ظهر في القرن الثاني عشر وليس قبل ذلك (حسب دراستنا للمخطوطات القبطية) القانون الخاص بعدم دخول المرأة لتعميد الطفل قبل (٤٠ يومًا للذكر — ٨٠ يومًا للأنثى) إلى أن تكمل أيام تطهيرها. وإذا تذكَّرنا أن الكنيسة حتى القرن الخامس كانت تعتبر أعياد الغطاس (الظهور الإلهي) والفصح والعنصرة هي مناسبات التعميد، أدركنا أن كل كتب خدمة المعمودية المقدسة كانت تخلو من الإشارة إلى تطهير المرأة لأن النساء لا يلدن في مناسبات الأعياد المقدسة!!!. وما أعظم الفرق بين القانون الكنسي في فترة ما بعد القرن العاشر والثاني عشر، والقانون الكنسي في القرون الخمسة الأولى، ذلك أن قوانين القرون الخمسة الأولى كانت تلتزم بالعقيدة، وتجعل العقيدة هي الأساس الذي تستند عليه في التشريعات الكنسية. ولعل فقدان هذه النظرة هو الذي أدَّى في النهاية إلى ظهور هذه القوانين وإلى عودة الروح التشريعية للعهد القديم. وإذا كان الرب قد حدَّد أن الأشياء الخارجية لا يمكن أن تنجِّس الإنسان (مرقس ٧: ١٥) لأنها لا تدخل إلى قلبه، بل إلى جوفه (مرقس ٧: ١٩)، ولكن الذي يخرج من الإنسان ذلك ينجس الإنسان، وما هو "من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة زنى فسق قتل .. جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجِّس الإنسان" (مرقس ٧: ٢١ — ٢٣).

ولدينا في المصادر القديمة تلك القطعة الرائعة التي كتبها القديس أثناسيوس الرسولي، وهي الرسالة المعروفة باسم "الرسالة إلى آمون الراهب" والتي ناقش فيها موضوع إفرازات الجسد. ولُبُّ هذه الرسالة هو التعليم المسيحي عن الجسد الذي لا يتنجَّس إلَّا بالخطية، لأنه عندما يؤدِّي وظائفه الحيوية، لا يمكن أن يتنجس وهو يتمم ناموس الخلق. ولعل هذه الرسالة التي تعود إلى حوالي سنة ٣٣٩ هي الدليل التاريخي الوحيد على بداية

الجدل حول هذا الموضوع. والذين يحاولون اليوم أن يشكِّكوا في صحة وأصالة الرسالة إلى آمون لا يدركون أن تزوير هذه الرسالة مستحيل، لأن قوائم مؤلفات رسائل الفصح والرسائل الشخصية التي كتبها أثناسيوس معروفةٌ لدينا منذ القرن الخامس، والإشارة إلى الرسالة إلى آمون في مؤلفات القرن السادس واضحةٌ جدًا.

ولأن العقيدة هي الأصل يقول كتاب الأحكام الرسولية، وهو ما يُعرف عندنا باسم الدسقولية إن "المرأة الطامث تنفذ ناموس الخليقة، ولا يفارقها الروح القدس في مدة طمثها، ولذلك فهي تصلي وتقرأ الكتاب المقدس وتتناول من الأسرار المقدسة" (ك ٣: فصل ٢٤ – النص اليوناني). وهذا النص بالذات معروفٌ في الدسقولية السريانية، ثم الدسقولية العربية. ولكن ما هو جدير بالملاحظة أن الناسخ القبطي في القرن الثالث عشر أسقط هذا الفصل تمامًا وحوَّل الدسقولية من ٤٥ فصلًا إلى ٣٩ فصلًا.

إن التقليد نهرٌ واسعٌ قويٌّ قد تُلقي فيه الظروف المحيطة بالكنيسة ببعض الأتربة، ولكن الأتربة تعجز عن أن تقضي على صفاء المياه، وما أكثر الأخطاء التي جرفها التقليد. ولذلك، عودتُنا إلى العقيدة هي السبيل الوحيد لتنقية الأخطاء التي شاعت في القوانين المتأخرة. والموضوع ليس ما يتعلق بالمرأة، وإنما ما يتعلق بالإنسان وكرامته في نور التجسد الإلهي الذي غيَّر كل علاقات البشر مع الله.

+ + +